الدور العسكري للمغاربة في الحروب الصّليبية بالمشرق الإسلاميمن بداية الفاطميين إلى نهاية المماليك

(362هـ - 922هـ /973م- 1517م)

أ/ محمد عيساوة

جامعة باجي مختار -عنابة -

الكلمات المفتاحية: المغاربة – الحروب الصليبيّة – المشرق الإسلامي – العهد الفاطمي – العهد الزنكي – العهد الأيوبي – عهد المماليك.

الملخص :

يتناول هذا المقال الدور العسكري للمغاربة في الحروب الصليبيّة بالمشرق الإسلامي من بداية الفاطميين إلى نهاية المماليك، ومن منطلق هذا الدور الرّيادي الذي لعبه المغاربة في هذه الحروب، أردنا إماطة اللثام عن هذا الموضوع، من خلال سرد الشواهد التاريخية التي تثبت وقوف المغاربة صفا واحدا إلى جانب إخوانهم المشارقة للتّصدي لهذه الحملات الشرسة، ممّا يُعطي صورة واضحة لتواصل الغرب الإسلامي مع بلاد المشرق خلال العصر الوسيط في كل الميادين، لاسيما الميادين العسكرية .

Résumé :

Cet article traite du rôle militaire des Maghrébins dans les croisades à l'Orient islamique depuis le début des Fatimides à la fin de mamelouk, de ce rôle de pionnier joué par les Maghrébins dans ces guerres, nous avons voulu découvrir ce sujet par des preuves historiques prouvant le soutien des Maghrébins à leurs frères de l'Orient pour répondre à ces féroces campagnes, ce qui donne une image claire du contact de l'Occident musulman avec L'Orient au Moyen Age dans tous les domaines, en particulier les domaines militaires.

تمهيد:

كان العالم الإسلامي خلال الحروب الصليبية يعيش ظروفا سياسية صعبة كرّست الانقسام الحاصل والفرقة التي كانت واضحة لكل ذي عين، وعلى الرغم من الظروف السّيئة التي أحاطت بالعالم الإسلامي نتيجة مباشرة للبعد عن الأخذ الكامل بمنهج الإسلام في الحياة، فإن الدّول الإسلامية، بما بقي فيها من اعتزاز بمنهج دينها، لم تستسلم لهذا الغزو الصليبي طالما فيها بقية على القدرة في المقاومة .

هذا ما أدى إلى إعلان حالة النفير في العالم الإسلامي للتصدّي لهذه الحملات الصليبية المنظّمة، تُرى ما هو رد فعل دول العالم الإسلامي إزاء هذه الحملات الصليبية؟، وهل كان للجالية المغربية التي استقرّت بمختلف الحواضر المشرقية دور في ذلك؟.

1- العهد الفاطمي (362- 567هـ)/ (973- 1171م):

عاصرت الحملة الصليبية الأولى[1] وجود الفاطميين ببلاد المشرق، ومن المعلوم أن المجتمع الفاطمي قد ضمّ في ثناياه قوة مغاربية كان عمادها قبيلة كتامة، والملاحظ أن هؤلاء المغاربة قد لعبوا دورا كبيرا في التصدي للصليبيين، إذ كان اشتراكهم في الحروب الصليبية في المشرق ليس غريبا في شيء، لا سيما إذا تذكرنا أن بلاد المغرب والأندلس كانت تعيش نفس الظروف في صراعها مع النصارى المسيحيين في الجزء الغربي من العالم الإسلامي.[2]

استمد الفاطميون قوتهم الحربية من عنصرين أساسين هما العنصر المغربي والعنصر المشرقي، فالمغاربة هم من البربر، وكان من أهم قبائل البربر التي أمدّت الجيش برجالها فروع الكتامية والباطلية، والمصامدة والجوذرية "نسبة إلى قائدهم جوذر"، وزويلة التي جاءت مع جوهر الصقلي من المغرب[3]، ويؤكد ناصر خسرو على أن الجيش الفاطمي كان عماد قوته الكتاميين إذ يقول: "كان في الجيش الذي يخرج للقتال فرقة تسمى فرقة الكتاميين، هم من القيروان أتوا في خدمة لدين الله، وقيل أنّهم عشرون ألف فارس".[4]

ونود أن نشير إلى أن المغاربة، قبل أن يشتركوا في الحروب الصليبية المنظمة، قد ورد ذكرهم في المصادر التاريخية، حيث يورد المقريزي دورهم في التصدي للحملة البيزنطية التي قادها تزيمسكيس المعروف في المصادر العربية بابن الشمشقيق في أواخر سنة 364هـ، وأوائل سنة 365هـ- 976م، والذي قام بحملة برية ضخمة مستهدفة المدن

الداخلية بالشام، والتي كانت تحت حكم الفاطميين (حمص وبعلبك) ثم تحولت إلى مدن الساحل (بيروت وصيدا).[5]

يستفاد من الرواية التي ذكرها المقريزي أن جهود المغاربة بدأت مبكرة، ونقرأ ذلك من خلال ذودهم عن بلاد المشرق والتصدي للحملات البيزنطية.

هذا وتشير المصادر أيضا أن القائد الفاطمي نصير الخادم الصقلي وصل بيروت بطريق البحر ومعه عسكر كثير من المغاربة للدفاع عنها، إلى جانب مغادرة ريان الخادم دمشق ومن معه من المغاربة بغرض الدفاع عن طرابلس بعد أن جاءت الأخبار بنزول البيزنطيين لحصارها.[6]

وما يدل على مشاركة المغاربة أن الإمبراطور صاحب الحملة بعث برسالة إلى ملك الأرمن أشوط شاهان، ذاكرا له بأن هناك فرقة من المغاربة من حامية طرابلس تقدر بألفي رجل تقوم بمهمة استطلاعية، وترصد الطريق، وقد سمى المغاربة بالإفريقيين، هذا إلى جانب حضورهم القوي كمرابطين على ساحل صيدا، الذين شحنه الفاطميون بآلاف الجند المغاربة يتقدمهم القائد ابن كرامة المغربي.[7]

ومن القرائن أيضا على اشتراك المغاربة نذكر أنه في سنة 370هـ تولى أمر طرابلس قائد مغربي هو نزال الغربي الكتامي، والذي كان تحت إمرته ستة آلاف رجل، وكان لهم دور في مواجهة البيزنطيين حيث نازل هذا القائد ومن معه مدينة اللاذقية، التي كانت بأيدهم، كما نجح مع قائد فاطمي آخر يدعى ابن شاكر في أسر القائد البيزنطي المُعيّن عليها من طرف الإمبراطور باسليوس الثاني، ويورد النويري هذا الخبر في حوادث (372هـ- 982م) ويضيف أنّ نزال قد دخل القاهرة ومعه خمسة آلاف من الروم مقيدين بالسلاسل[8].

ومع بداية الحملات الصليبية المنظّمة نلمس دورا آخر للمغاربة، فإذا كان على الفاطميين أن يكافحوا الغزو الصليبي في المشرق، فقد كان على المرابطين أن يجاهدوا الإسبان في الأندلس، وهكذا تبدوا لنا الأوضاع السياسية، وكأنّ كل دولة منصرفة عن الأخرى بمشاكلها الخاصة.

لكن الملفت للانتباه أن الفاطميين لم يكونوا وحدهم من انشغل بالحروب ضدّ الصليبيين الغزاة، فالجبهة المغربية كانت هي الأخرى حاضرة وحسبنا شاهدا في ذلك ما يرويه ابن الأثير في حوادث سنة (499هـ)، إذ يقول: "ورد على بغداد أمير من الملثّمين (أي المرابطين) ملوك المغرب قاصدا دار الخلافة، فأكرِم وكان يرافقه أحد الفقهاء أتى

الخليفة وقام بالوعظ في جامع القصر، فاجتمع له العالم العظيم وكان يعظ وهو متلثّم لا يظهر منه غير عينيه، كان هذا الأخير قد حضر مع الأفضل أمير الجيوش بمصر وقعته مع الفرنج، وأبلى بلاءا حسنا"[9].

يستنتج من حصاد ما سبق أنه على الرغم من العداء الذي كان بين الدولتين الفاطمية (الشيعية)، والمرابطية (السنّية) لم يمنع من مؤازرة بعضهم البعض وحسبنا في ذلك عدد المغاربة الذين شاركوا إخوانهم في جهادهم للصليبيين.

على أن دولة المرابطين لم تعمر طويلا حيث سقطت في النصف الأول من القرن السادس هجري، الثاني عشر ميلادي، وقامت على أنقاضها دولة مجاهدة أخرى هي دولة الموحدين والتي قامت كحركة إصلاحية تهدف إلى توحيد المغرب، كما كانت ترنو إلى تخليص بيت المقدس والشام والأندلس من المستعمر الصليبي، وتأكيدا لهذا المطلب فتحت الباب على مصراعيه أمام المتطوعين من المغاربة للسفر إلى مصر والشام، ومشاركة إخوانهم المشارقة في جهاد الصليبين برّا وبحرّا[10].

2- العهد الزنكي: (521 - 569هـ)، (1127- 1171م):

أثبتت الأحداث التاريخية التي جرت في المرحلة الأولى من المواجهة العربية الصليبية أن دولتي الخلافة العباسية والفاطمية، رغم ما قامتا به من دور في مواجهة الصّليبيين، إلاّ أنّهما لم ترقيا إلى المستوى المطلوب إذ لم تُمثّلا النموذج الأمثل لقيادة الأمة العربية.

وهكذا فرضت الأحداث التاريخية نمط الدولة العسكرية بديلا مناسبا بشرط أن تقوم بتوحيد الجهود في مواجهة الصليبين، فكانت دولة عماد الدين زنكي التي ارتكزت على محور الموصل – حلب، هي السابقة التاريخية أو التجربة الأولى في صياغة الدولة العسكرية الموحدة تحت راية قائد واحد يقود جيشه بنفسه، في ميدان الحرب ولقد تولّى، عماد الدين زنكي حكم الموصل سنة (521هـ - 1127م)، ليقود دولته الصغيرة في الموصل نحو هدف مزدوج هو توحيد الجهود العربية الإسلامية، وطرد الصليبيين من الأراضي العربية الإسلامية[11].

ثم خلفه ابنه نور الدين (ت569هـ) وكانت تؤازره أسرة صلاح الدين الأيوبي منهم: نجم الدين أيوب وشيركوه، ثم صلاح الدين الأيوبي، وقد رحب هؤلاء القادة المشارقة

بجميع المجاهدين الوافدين من المغرب، واستعانوا بهم في جيوشهم البرية وأساطيلهم البحرية، وهنا يظهر دور المغاربة بوضوح في جهاد الصليبيين سواء في مصر أو الشام.[12]

ويتجلّى لنا دور المغاربة أكثر خلال الحروب الصليبية، إذ تذكر المصادر أنه لما نزل الفرنجة بنواحي دمشق، سنة (543هـ) في عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل، خرج المسلمون من دمشق للمصاف، فكانوا مائة وثلاثين ألف راجل، فاستشهد نحو المائتين، ثم برزوا في اليوم الثاني فاستشهد جماعة وقتل من الفرنج عدد كثير، فلما كان خامس يوم وصل غازي ابن أتابك وأخوه نور الدين في عشرين ألفا إلى حماة، وكان أهل دمشق في الاستغاثة والتضرع إلى الله، وأخرجوا المصحف العثماني إلى صحن الجامع وضجّ النساء والأطفال مكشّفين الرؤوس، وصدقوا الافتقار إلى الله فأغاثهم، وفي هذه المعركة توفي أبو الحجاج يوسف ابن دوباس المغربي المالكي،[13] وكان فقيها عالما صالحا حلو المجالسة قتل في سبيل الله في حصار الفرنج لدمشق مُقبل غير مُدبر بالنّيرب.[14]

وتنهض إشارة ابن جبير دليلا إضافيا على مشاركة المغاربة ونقرأ ذلك في معرض حديثة عن مدينة بنياس ومروره بحصن تبنين قوله: "بأنه موضع لتمكيس القوافل وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة، ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين وذلك لمقدمة منهم أحفظت الإفرنج عليهم، سببها أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله أحد الحصون، فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافهم على بلادهم، وقال الإفرنج: أن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم، ولا نرزأهم، فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم، "فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجليل في نكايتهم بالعدو يسهله عليهم ويخفف عنتهم عنهم"[15].

وإلى جانب ما أسهم به المغاربة بجهودهم الحربية عن حياض الإسلام تطلعنا المصادر عن مشاركتهم الفعالة في التقدم الحضاري الذي عرفته مختلف حواضر المشرق، والذي ومن القرائن على ذلك هو ما ذكره ابن أبي أصيبعة (ت668هـ-1269م) حيث يذكر أن أبو المجد ابن أبي الحكم عبيد الله ابن المظفر ابن عبد الله الباهلي من الحكماء المشهورين، والعلماء المذكورين والأفاضل في الصناعة الطبية كان يلقب بأفضل الدولة، إذ كان في دولة السلطان الملك العادل نور الدين محمود زنكي رحمه الله، فكان يرى له ويحترمه ويعرف مقدار علمه وفضله ولما أنشأ الملك العادل نور الدين

البيمارستان الكبير جعل أمر الطب إليه فيه، وكان يتردد إليه ويعالج المرضى فيه، وكان أبو المجد يدور على المرضى به ويتفقد أحوالهم[16]، كما قام الطبيب علي ابن بذوخ القلعي المغربي بدمشق سنين كثيرة، وكان يعالج من يأتي إليه، أو يستوصف منه، توفي بدمشق في سنة خمس أو ست وسبعين وخمسمائة.[17]

ونظير هذه الجهود المغربية نجد أن المشارقة في عهد الزنكيين قد حرصوا على إظهار إعجابهم وتقديرهم لما بذله إخوانهم المغاربة ذودا عن حياض الإسلام والمسلمين في المشرق، بمثل اندفاعهم لدفع الأخطار عن بلادهم فاحتضنوهم، وتعاطفوا معهم، وتمادوا بتكريمهم ومساعدتهم، ونلمس ذلك في اهتمامهم بمسألة افتكاك الأسرى المغاربة من قبضة الفرنج، حيث اعتبروها واجبا دينياً يُنال الأجر من ورائها.

فذُكر أن نور الدين زنكي نذر في مرضة أصابته مبلغا كبيرا من المال لفداء أسرى من المغاربة، فلما ابتلّ من مرضه، أرسل في فدائهم فسيق فيهم نفر ليسوا مغاربة، وكانوا من حماة من جملة عمالته، فأمر بصرفهم وأخرج عوضا عنهم من المغاربة، وقال: "هؤلاء يفتكّهم أهلهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم"[18].

هذا ويذكر أسامة بن منقذ في سياق إشارته لافتكاك نحو أربعمائة من المغاربة وقعوا في أسر الفرنج أن معين الدولة أنر صاحب دمشق أصرّ على أن يُسهم بنفقات افتكاك هؤلاء الأسرى قائلا لأسامة: "لا، بل أنا أزن والله ثمنهم، وأنا أرغّب الناس في ثوابهم"[19].

وتقديرا للجهود التي كان يبذلها المغاربة خلال الحروب الصليبية، دفع الأمر بنور الدين زنكي إلى اتّخاذ بعض التّسهيلات والإجراءات الخاصة بهم، وهذا ما نلمسه في شهادة ابن جبير عند قوله: "وسائر الغرباء ممن ليس على هذا الحال، ممن عهد الخدمة والمهنة يسبب له أيضا أسبابا غريبة من الخدمة، إما بستانا يكون ناطورا فيه، أو حماما يكون عينا عليه، وحافظا لأثواب داخلية، أو طاحونة يكون أمينا عليها، أو كفالة صبيان يؤديهم إلى محاضرهم ويصرفهم إلى منازلهم، إلى غير ذلك من الوجوه الواسعة، وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء"[20]، ومن مناقبه أيضا -رحمه الله- أنه كان قد عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامعي المبارك أوقافا كثيرة، منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء، وحمام ودكانان بالعطارين.[21]

3- العهد الأيوبي: (569هـ - 650هـ)/ (1171م- 1252م):

بعد استقلال صلاح الدين بأرض مصر أسقط عن أهلها المكوس والضرائب، وقرأ المرسوم بذلك على رؤوس الأشهاد يوم الجمعة، ثم تجرّدت همّته إلى الفرنج وغزوهم [22].

والجدير بالذكر أن اشتراك المغاربة في الفترة التي تلت انتهاء حكم نور الدين زنكي الشهيد قد استمر، ويمكن القول أنّ أعدادهم قد ازدادت بشكل كثيف على عهد صلاح الدين الأيوبي، وظهرت مشاركتهم على وجهين الأول كمحاربين أساسين، والثاني كمرافقين للجيش يقومون بتقديم الخدمات التي لا تقل عن غيرها في ميدان الحرب.

كمثال على الوجه الأول نجد أن المغاربة وقفوا جنبا إلى جنب مع صلاح الدين في معارك التحرير، وكان هؤلاء المغاربة كالكثير من الشاميين الذين شاركوا في هذه الحروب، من غير الجيش النظامي الذي لم يكن يشكل كل القوة المحاربة، فقد بين الإنجليزي "جب" أن عدد الجند النظامي لدى جيش صلاح الدين في موقعة حطين لم يكن يتجاوز الأربعة عشر ألفا، أما المحاربون الآخرون فكانوا متطوعة ومتصوفة مع أتباعهم، ومنهم المغاربة من غير المؤهلين للحرب بشكل نظامي مرتب [23].

هذا وقد ذُكر أنه أثناء حصار العرب المسلمين لمدينة عكا جاء رسول من قبل أحد قادة الصليبيين ومعه أسير مغربي، قدمه إلى السلطان صلاح الدين على سبيل الهدية فاستقبل الأسير بحفاوة وتقدير، الأمر الذي يدل على مدى إعجاب صلاح الدين بالمغاربة وتقدير جهودهم في الحرب ضد أعدائه [24].

ومن القرائن أيضا ما ذكره العماد الأصفهاني كاتب صلاح الدين الذي أشار إلى شخصية مغربية جليلة صاحبت صلاح الدين في جهاده ضد الصليبيين، هي شخصية الأمير عبد العزيز ابن شداد ابن تميم ابن المعز ابن باديس، الذي كان جده تميم بن المعز ابن باديس الصنهاجي، أحد ملوك الدولة الزيريّة في إفريقية [25].

أما عن الوجه الثاني فلم يكن اشتراك المغاربة على هيئة محاربين كجنود يحملون السلاح، بل تجلى بمرافقة الجيش، وتقديم خدمات جليلة ساهمت إلى حد كبير في رفع معنويات الجيش القتالية، فقد عرفت أعداد كبير منهم كانت مهمتهم الرئيسية تحضير الطعام، وتجهيز الحمامات للجنود من أجل الاغتسال[26].

لقد عاصرت الدولة الأيوبية بالمشرق دولة الموحدين بالمغرب، والتي كان خلفاؤها رمزا للجهاد والتضحية، حيث وصل بهم التفكير إلى تخليص بيت المقدس من أيدي الصليبيين، خاصة وأن دولة الموحدين عملت في تلك الفترة على نشر الدعاية اللازمة لخلافتهم هناك، فأرسلوا الدعاة إلى مصر وكان عددهم واحدا وخمسين رجلا[27]، وتفيد إشارة ابن جبير الذي عاصر قيام دولة الموحدين دليلا على ذلك، إذ يذكر بأن المصريين كانوا يترقبون مجيء الموحدين[28]، على أن شهرة المغاربة في المشرق قد ذاعت بصفة خاصة في الجهاد البحري لمهارتهم في قيادة السفن والملاحة، وفي فنون القتال البحري ولهذا عُرفوا بفرسان البحر.

ومن الشواهد التي تبين على مشاركة المغاربة في الجهاد البحري هو وقوفهم إلى جانب حسام الدين لؤلؤ إثر حملاته البحرية ضد الصليبيين في البحر الأحمر على عهد صلاح الدين الأيوبي، كما كان لهم الفضل في الإيقاع بالفرنجة وإطلاق سراح أسرى المسلمين الذين وقعوا في أسر الأمير الصليبي أرناط صاحب الكرك عام(587ه) بالمكان المسمى عيذاب بالبحر الأحمر[29].

هذا ويذكر العبادي نقلا عن العماد الأصفهاني إشارته إلى أن وحدات الأسطول المصري التي هاجمت أساطيل الصليبيين في مدينة صور أيام صلاح الدين كانت بقيادة قائد مغربي يدعى عبد السلام المغربي[30].

ولعلّ أكبر دليل على اختصاص المغاربة بالأساطيل البحرية في ذلك الوقت هو ما ترويه المصادر التاريخية من أن صلاح الدين قد استنجد بالعاهل المغربي المنصور الموحدي (580-595ه) يطلب منه المساعدة البحرية، ذلك أنه لما استولى صلاح الدين على ديار مصر والشام، اعتزم على جهاد الصليبيين، وصار يفتح حصونها واحدا تلو واحد، حتى أتى على جميعها، وافتتح بيت المقدس سنة(583ه)، وهدم الكنيسة التي بناها النصارى فيه، وإثر هذا الفعل انفضت أممهم من كل جهة، وتتابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد من كل ناحية، واعترضوا أسطول صلاح الدين في البحر، فلم تقاومهم أساطيل الإسكندرية لضعفها يومئذ عن ممانعتهم[31].

فبعث صلاح الدين صريخه سنة خمس وثمانين وخمس مائة عن طريق موفده أبي الحرث عبد الرحمان بن منقذ إلى يعقوب المنصور الموحدي (580-595ه/1184-1198م)[32]، يطلب منه مدد الأساطيل لتحول في البحر بين أساطيل الفرنج وبين أمداد النصرانية بالشام، وبعث مع موفده بهدية تشتمل على مصحفين كريمين منسوبين، ومائة

درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلا من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر، وخمسين قوسا عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وسروج عدة مثقلة[33].

وذلك أن سمعة الأساطيل التي كان المغرب يتوفر عليها قد وصلت إلى الديار المشرقية، وبخاصة أيام دولة الموحدين، الذين أنشأوا لهم دار الصنعة المتخصصة بإنشاء الأساطيل البحرية والمراكب الجهادية، وردت فكرة الاستعانة بأسطول المغرب الذي كان يهيمن على مسالك البحر المتوسط والذي كان يخطط لفتح القسطنطينية قبل العثمانيين بقرنين وربع قرن على ما ترويه المصادر التركية (كبيري رايس في كتاب بحرية)[34].

إذ لا يُستبعد أن يكون اتصال صلاح الدين بيعقوب المنصوري الموحدي راجعا إلى حاجة الأسطول المصري إلى بعض القطع من الأسطول الموحّدي لدفع الخطر الصليبي، الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام بحرا، إذ عُني المغاربة في عهد الموحدين خاصة ببناء الأساطيل البحرية لاجتياز البحر إلى عدوة الأندلس لرد الصليبيين الذين كانوا يتطلعون إلى استرداد أملاكهم من أيدي المسلمين بسبب الحروب المتصلة التي كانت تدور بين المغاربة ونصارى الأندلس[35].

فوصل رسول صلاح الدين إلى المغرب، فصادف المنصور بالأندلس، فانتظره بفاس إلى أن رجع فلقيه فأدى الرسالة وقدم الهدية، وكان الكتاب الذي بعث به صلاح الدين من إنشاء الأديب عبد الرحمن البيساني المعروف بالقاضي الفاضل[36].

وكانت ديباجة الكتاب "من الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن أيوب، أما بعد فإن الغرب مستودع الأنوار وكنز دينار الشمس، ومصب أنهار النهار، ومن جانبه يأتي سكون الليل ... استصرخ الكفار بالكفار فأجابوهم رجالا وفرسانا وشيبا وشبانا وزرافات ووحدانا وبرا وبحرا ومركبا وظهرا، ومنهم ملك الألمان الذي خرج في جموع ملأت الفجاج ... وربما وصل بهم إلى عكا في البحر تهيبا أن يسلك البر..."، ولما كانت حضرة سلطان الإسلام وقائد المجاهدين إلى دار السلام أول من توجه إليه الإسلام بشكواه واستعان به على حماية نسله وحرثه...كان المتوقع لتلك الدولة العالية، والعزمة الغادية، مع القدرة الوافية، والهمة الهادئة، أن يمد غرب الإسلام المسلمين بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين، فيملؤها عليهم جواري كالأعلام، وشواني كأنها الليالي مقلعة بالأيام، تطلع علينا معشر الإسلام، آمالا وتطلع على الكفار آجالا، وقد سير لحصن مجلسه الأطهر، ومحله الأنور، الأمير الأصيل، سفير الملوك والسلاطين، أبو الحسن عبد الرحمن بن منقذ، كتب الله سلامته..."[37].

وأوضح ابن منقذ للخليفة الموحدي الغرض من سفارته، وعرض له طلب صلاح الدين الاستعانة بالبحرية المغربية لعرقلة المسيحيين الكفار في المغرب، وعدم تمكينهم بإرسال المدد إلى إخوانهم في الشام، مما يُمكّن مسلمي الشرق من فك الحصار المضروب على مدينة عكا، مع بيان أهمية عكا بالنسبة للمسلمين[38].

فغمره المنصور من فيض عطاياه، حيث يذكر ابن خلدون أن المنصور أمجده بعد ذلك وجهز له مائة وثمانين أسطولا، ومنع النصارى من سواحل الشام[39]، وعند إكرام سلطان الموحدين سفير صلاح الدين وتماديه في إكرامه مدحه بن منقذ في قصيدة عدتها أربعون بيتا أعطاه بكل بيت ألفا ومن القصيدة: (من بحر الطويل)

سأشكر بحرا ذا عُباب قطعته ** إلى بحر جُود ما لآخره ساحل

إلى معدن التقوى إلى كعبة الندى ** إلى من سمت بالذكر منه الأوائل

قطعتُ إليك البر والبحر مُوقنا ** بأن نداك الغمر بالنجح كامل

وحُزت بقصيدك العُلا فبلغتها ** وأدنى عطاياك العدد والفواضل

فلا زلت للعلياء والجود بانيا ** تبلغك الآمال ما أنت آمل.[40]

ومن أجل ضمان صلاح الدين لتفوقه عمل على رفع أجور رجال الأسطول لتحسين حالهم، فقرّر أن يكون دينار الأسطول ثلاثة أرباع الدينار العام بعد أن كان خمسة أثمان ذلك الدينار، أي بزيادة عشرون بالمائة تقريبا[41].

وبعد وفاة صلاح الدين استمرّت الدولة الأيوبية في سياسة استخدام المغاربة في أساطيلها، وقد لاحظ ذلك الرحالة الأندلسي بن سعيد المغربي (ت 685هـ/1268م)، حينما زار الحكومة المصرية في ذلك الوقت، أي في النصف الأول من القرن السابع للهجرة (13م)، فذكر أن الحكومة المصرية، لجأت إلى تجنيد المغاربة المقيمين في مصر للعمل في الأسطول استنادا إلى الفكرة الشائعة في المشرق عن اختصاصهم بهذا العمل بمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر[42].

وهكذا نرى مما تقدّم أن هناك عددا كبيرا من المغاربة وقفوا إلى جانب إخوانهم المشارقة في جهادهم ضدّ الصليبيين في الشام بغية تخليص الأراضي المقدسة من أيديهم.

4- عهد المماليك: (648 - 922هـ)، البرجية(648-784هـ) والبحرية(784-922هـ):

لما ورث المماليك دولة الأيوبيين في مصر والشام، واصلوا سياستهم الجهادية نحو إخراج الصليبيين من الشام، ومن جزر البحر المتوسط ولا سيما جزيرة قبرص[43]، التي تزعم ملوكها آل لوزجنان مشروعات الصليبيين في المشرق العربي.

هذا الخطر الصليبي فرض على المماليك الاستعانة بالمغاربة، حيث كان تجنيدهم في الجيش المملوكي تقليدا مُتّبعا منذ احتدام الحركة الصليبية، فساهموا مساهمة فعالة في الجهاد ضد الصليبيين، وفي المرابطة على سواحل مصر والشام منذ عصر مبكر، فقد اشترك جماعة منهم في الجهاد مع نور الدين زنكي كما أسلفنا القول، إذ عين لهم زاوية المالكية بجامع دمشق والتي احتوت على أوقاف كثيرة. واشتركوا أيضا في الجهاد بالإسكندرية في بداية قيام الدولة الأيوبية، فأسس لهم صلاح الدين مدرسة ودارا وبيمارستانا.

كما تمثلت إسهامات المغاربة في الدفاع والذود عن بلاد الشام بتقديم الأموال من أجل تجهيز المقاتلين بالسلاح والعتاد وغير ذلك، مثال هؤلاء: محمد بن أحمد أبو الوليد التجيبي الأندلسي إمام الحراب المالكية بدمشق المتوفي سنة 758هـ/ 1319م، والذي يقول عنه ابن حجر العسقلاني في كتابه الدرر الكامنة: "... وكانت له عدة كاملة من السلاح والخيل أعدها للغزاة من ماله ..."[44].

لذلك فليس غريبا أن يكون جزء كبير من تصرفات حكام المماليك الإيجابية تجاه الجالية المغربية في الشام كتخفيض الضرائب عن البضائع التجارية التي يأتي بها إلى الشام التجار المغاربة وغير ذلك تكون بسبب موقفهم العسكري ضد الأعداء[45].

ويتجلّى هذا الموقف زمن السلطان الظاهر بيبرس (658-676هـ)، حيث أنه لما تولى السلطنة اهتم بغزو جزيرة قبرص، فأرسل أسطوله بقيادة جمال الدين مكي بن حسون، وواضح من اسم هذا القائد ابن حسون أنه من أصل أندلسي، لأن اسمه في الأصل حسن، أما مقطع الواو والنون في آخر اسمه فليس إلا مقطعاً إسبانيا في الآخر، للدلالة على التعظيم والتكبير[46].

وضع الظاهر بيبرس تحت تصرف هذا القائد سبعة عشر شينيا لغزو قبرص سنة (669هـ- 1270م)، مستغلا في ذلك غياب الملك هيوم الثالث لوزجنان المشهور بأطماعه الصليبية في الشام، وجاءت بعد ذلك أسرة قلاوون (678- 741هـ) التي قضت على الإمارات

الصليبية الباقية في الشام، فاستولى السلطان قلاوون على طرابلس سنة (688هـ - 1289م) ثم استولى والده الأشرف خليل على عكا سنة (690هـ -1291م)، والناصر محمد على جزيرة أرواد شمال طرابلس (702هـ -1302م)، وبذلك خلت السواحل الشامية من الصليبين، ولا شك أن المغاربة لعبوا دورا كبيرا في هذه العمليات، بدليل ما ذكرته المصادر من أن أمير البحر الرئيس البطراني المغربي، كان من بين قادة الحملة البحرية التي أطبقت على جزيرة أرواد واستولت عليها[47].

على أن طرد الصليبين من الشام لم يحل دون استمرار غاراتهم على الثغور المصرية والشامية، وقد تزعمت جزيرة قبرص هذه المشروعات الصليبية العدوانية بحكم طبيعة موقعها الجغرافي بين شواطئ المسلمين في مصر والشام وآسيا الصغرى، وكونها كانت مركزا تجاريا هاما، وسوقا عالمية للممالك الصليبية الغربية في حوض البحر المتوسط، كل هذا دفع بملوكها من آل لوزجنان إلى تبني الفكرة الصليبية ومحاولة استعادة بيت المقدس من جديد، والذي يهمنا هنا الملك بطرس الأول لوزجنان (1356-1369م)، حيث يقترن اسم هذا الملك بالغارة الوحشية التي شنّها على مدينة الإسكندرية سنة (767هـ-1365م)، وقد قام مغاربة الإسكندرية بدور بارز في مقاومة الغزاة القبرصية على المدينة آنذاك،[48] وكانت هذه الغزوة من أخطر الوقائع التي تعرضت لها الإسكندرية طوال عصرها الإسلامي، وكما جرى استخدام الغز الأتراك في صفوف القوى الموحدية، قام المماليك لا سيما البحرية (648- 784هـ) منهم باستخدام المغاربة النازيين بالإسكندرية على الأخص في القوى البحرية المملوكية، وظهر تحت قيادة الأمير المملوكي يلبغا الخاصكي عدد من قواد المغاربة في البحر ومنهم الرئيس إبراهيم التازي[49].

هذا الأخير كان يتولى رئاسة دار صناعة الإسكندرية في عصر الأشرف شعبان (764 - 778هـ) والذي لم يكن رئيسا للصناعة فحسب، بل قائدا بحريا من الدرجة الأولى، أبدى الكثير من ضروب البطولة، وغزا عددا من بلاد القبارصة في البحر، ومن رؤساء البحر بالإسكندرية زمن الظاهر بيبرس، شهاب الدين محمد بن إبراهيم بن عبد السلام الهواري المغربي[50].

وفي واقعة الإسكندرية هذه، كان القبارصة يترقبون عملا حاسما من جانب المسلمين، فلما أدركوا عدم اكتراثهم للأمر قدموا غرابا إلى الساحل فتصدى له جماعة من المغاربة المجاهدين خاضوا في الماء وناوشوا من فيه القتال، وتمكنوا من الإمساك بالغراب في أيديهم ثم طلبوا من الزراقين أن يزودوهم بالنار ليحرقوه، ولكن للأسف لم يهتم أحد

لذلك لقلة همتهم وتهاونهم وغفلتهم، وما زال المغاربة ينادون في طلب النفط والنار، وأمام صراخهم المتواصل، دفع الزراقين بمدفع فيه نار كنار الحلفاء فوقع في الماء وانطفأ[51].

ويذكر النويري في كتابه "الإلمام بالأعلام" أن المغاربة دفعوا حياتهم ثمنا للدفاع عن المدينة، عندما نزلوا إلى المياه وأمسكوا القبرصية وجعلوا أجسادهم عرضة للنيران، ومن بين القواد المغاربة المشهورين والذين اضطلعوا بمهام عسكرية بحرية هامة الرايس إبراهيم التازي السالف الذكر، حيث أنه مع غضب السلطان المملوكي (الأشرف شعبان) من الغارة القبرصية كلف إبراهيم التازي بالإغارة على جزر العدو، وفي 29 رجب سنة 769هـ مارس 1367م، أقلع التازي من ثغر الإسكندرية في مركبتين حربيتين لهما خمسمائة مقاتل متجها إلى جزيرة قبرص وما يجاورها من جزر، فغنم سفينة للعدو وأرسلها إلى الإسكندرية بعد أن حجز معه رجالها، واستمر التازي في غاراته ثلاثة وعشرين يوما، عاد بعدها محملا بالغنائم والأسرى، فارتجت الإسكندرية لقدومه، وخرج أهلها إلى موضع منارها لاستقباله، واصطفّ الترك المجردة لحراسة الإسكندرية بطول الساحل راكبين خيولهم متطلعين إلى الغرابين القادمة، وقد ارتفعت عليهم أعلام السلطان[52].

وعلق النويري على بطولة إبراهيم التازي المغربي رئيس دار الصناعة بالإسكندرية بقوله: "ولأن الفرنج لا يقهرهم سوى المغاربة وذلك لمخالطتهم لهم بجزيرة الأندلس يعرفون طرق حربهم وضعنهم وضربهم في بر وبحر"[53]

هذا وقد أثارت الغارة الوحشية على السكان الآمنين في الإسكندرية موجة من السخط والغضب في أنحاء العالم الإسلامي شرقا وغربا، ففي الأندلس غربا، لم يجد المسلمون وسيلة للتعبير عن سخطهم سوى بالإغارة على جيرانهم المسيحيين الإسبان في مدينة جيان التابعة لملك قشتالة، ففي رسالة كتبها وزير مملكة غرناطة لسان الدين ابن الخطيب على لسان سلطانه أبي عبد الله الخامس(762-794هـ) إلى سلطان بني مرين بفاس يصف له حملته على جيان ودوافعها بقوله: "سلام كريم بفتح الفتوح المؤيد بالملائكة والروح ...فنوينا أن نرفع بها هضم جانب الإسكندرية، ونقوم بفرض الكفاية على الكافة المرضية، فاستدعينا أهل الجهاد ...بعد سنة كاملة من وقعة الإسكندرية، ونادى منادي الحمية يا لثارات أهل الإسكندرية!!" [54].

هذه الصيحة الجميلة إن دلّت على شيء فإنما تدل على مدى السخط والغضب الذي ألمّ بالأندلسيين من جرّاء حملة القبارصة الوحشية على الإسكندرية، كما أنها تحمل

في طيّاتها معاني الأخوّة والتضامن بين الشعوب الإسلامية أمام الغدر والعدوان مهما بعدُت بينها المسافات.

ويسوق لنا النويري قصة طريفة في هذا الصدد، وهي أن رجلا من بلدة ملج بمصر كان قد دخل الإسكندرية يتسوّق منها لدكّانه التي ببلده على جاري عادته، فصادف بها وقعة القبرصي، فأُسر بها بجملة من أُسر ووقع في سهم رجل من نصارى إسبانيا، وانتقل معه إلى مدينة جيان، فلما ظفر السلطان ابن الأحمر بها كان في جملة من أسره منها، فقال الأسير المليجي: لما وقفت بين يدي سلطان غرناطة أبي عبد الله محمد الخامس قلت له: "أيها الملك المنصور إنني رجل مسلم من ذرية المسلمين، ولم أكن نصرانيا ولا أبنائي ولا أجدادي نصارى". قال: ومن أين أنت؟ قلت: أنا من بلدة يُقال لها ملج من أرض مصر بين القاهرة والإسكندرية، دخلت الإسكندرية أتبضّع منها على جاري عادتي فصادفت وقعة القبرصي بها، فنُهبت وأُسرت وأتت بي النصارى إلى هذه الأرض، وقد خلصني الله تعالى من الأسر على يديك بما فتح الله عليك ...ثم قال لي: ووقعة الإسكندرية صحيحة كما قيل؟، قلت له: ظفر بها صاحب قبرص، نهبها وأسر منها، فقال السلطان عند ذلك: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنّا لله وإناّ إليه راجعون، لقد هتكتنا أهل الإسكندرية بين النصارى، أتاهم كلب من كلاب الجزر، فلّ عددهم، ونهب بلدهم، ولا أخذ لهم بثأر، فآه آه! لو كنا بالقرب من قبرص لكانت قبرص أكلة رجل من أهل الأندلس" [55].

ويضيف النويري أن بعض الأندلسيين القادمين في الركب المغربي بسبب الحج أخبروه بأن ملك قشتالة أرسل إلى سلطان غرناطة يطلب منه الصلح بعد أن دخله الرعب بسبب تخريبه لمدائنه، فقال السلطان لرسوله: "هو يريد أن يصالحني بينما تمضي النصارى إلى سواحل المسلمين بأرض مصر يقاتلوهم!؟، لا كان ذلك أبدا حتى ترد أموال الإسكندرية إليها مع أسراها، ويأتيني كتاب صاحب مصر بأنّكم اصطلحتم معه لأنه خادم الحرمين الشريفين وأنا خادمه بسبب ذلك، وحينئذ أصالح صاحبك القند (القمط)، وإلا السيف بيني وبينه حتى أملك أشبيلية وقرطبة وطليطلة، وأعيدها للمسلمين كما كانت لهم"، فلما بلغ القند مقالته قصر لسانه عن رد جوابه [56].

أما على الصعيد المغربي، فقد عبر المغاربة عن استيائهم وحزنهم بإنشاء المراثي والقصائد التي يرثون بها الإسكندرية بمناسبة هذه الغارة الوحشية، ومثال ذلك قول الشاعر الصوفي المغربي أحمد ابن أبي مجلة (1325 - 1375م)، التلمساني الأصل، هذه

الأبيات يشيد فيها بالمجاهدين المغاربة في خلال قصيدته التي يرثي بها الإسكندرية، من "بحر الطويل":

وحقق عندي للفرنج مكائد ** فليت ولي الأمر يدري ما أدري

فمن لي بفرسان الجزيرة عندما** تعامل أهل الكفر في البحر بالنحر

ومن لي بأسطول أهل سبتة ** بغربانهم مثل النسور إذا تسري.[57]

أما في مصر والشام فقد تجلى الغضب على شكل إجراءات سريعة أهمها جمع الأموال، وإعداد الأساطيل والأسلحة، ويشير إلى أن مجاهدا مغربيا عرض على الأمير "إلاكز" سلاحا جديدا عبارة عن قدور كفيات صغيرة من الفخار ضيقة الأفمام مملوءة جيرا ناعما مطفيا بالبول، وكانت الواحدة منها ملء الكف في قدر الرمانة مسدودة الفم الضيق بمشاقة (تشبه القنابل اليدوية في يومنا هذا)، ثم حكى له قصة استعمال هذا السلاح، ومدى تأثيره فقال: "بينما كنا مسافرين في البحر المالح بين سفاقص وطرابلس، صادفنا مركب للإفرنج فيه مقاتلة وتجار، فلما رأونا قصدونا، فلما قربوا منا القوا الكلاليب بمركبنا، وكنا قبل تكليهم لمركبنا نرمي عليهم بالسهام فلا تؤثر فيهم، حينئذ أعددت بمركبنا هذه القدور الكفيات فأمرت من بمركبنا من أصحابنا أن يرموا الفرنجة بها، فكان لها تأثير بالغ، حيث يصعد الجير بعد انكسارها في وجوه الفرنج فيدخل في أعينهم، ويصعد في خياشيمهم يفسد أنفاسهم ويعمي أبصارهم، وكان انتصارنا عليهم بعون الله تعالى بتلك القدور الكفيات المملوءة جيرا وبولا، قال: فلما رآها الأمير "إلاكز" أعجبه مرآها، واستحسنها، وأمر الفخاري أن يصنع مثلها أعدادا كثيرة، فعملوا نحو عشرة آلاف واحدة ملئت جيرا ناعما مطفيا بالبول ورفعت بقصر السلاح في المدينة حاصلا لوقتها المحتاج إليها، وعملوا أيضا من القدور الكبار صارت حاصلا لرمي المجانيق، كما يعمل فيها من المكائد المضرة للفرنج الكفرة" [58].

على أن ذكر المغاربة ودورهم العسكري قد تواصل فيما بعد وإلى غاية بدايات القرن العاشر للهجري، وهذا ما نلمسه في بعض الإشارات الدالة على ذلك منها: أنه عندما هاجم الفرنج مدينة بيروت سنة 785هـ-1383م، وعلى إثر اتّصال المسؤولين عن إدارتها مع نائب دمشق بقصد المساعدة للدفاع عنها، تذرّع بأنه يحتاج إلى أمر سلطاني، فقام بعض المتنفذين من المماليك بدعوة الناس إلى التطوع من أجل الجهاد، فكان على رأس

الذين استجابوا لهذه الدعوة القاضي المالكي آنذاك مع مجموعة كبيرة من المغاربة الموجودين بدمشق.[59]

وإذا كانت أخبار المغاربة في القوة المصرية ومعاركها تتنافر في إشارات نادرة قد سجلها النويري وغيره، إلا أن الإشارة التي أوردها ابن أياس عن دورهم في الأسطول المملوكي الغوري (906-922هـ) تؤكد عدم انقطاع هذا الدورِ واستمرارَه، وأهميته عند سلاطين المماليك وسياستهم الحربية، إذ يقول واصفا لتجريدة خرجت لقتال الفرنج: "وكان العسكر الذي كان خرج في هذه التجريدة ملفقا ما بين أولاد الناس، وبعض مماليك سلطانية، والغالب منهم مغاربة وعبيد سود رماة وتراكمة وغير ذلك".[60]

ولا جدال في أن قلة الإشارات المذكور عن المغاربة كان مرجعها ما أصاب مدينة الإسكندرية من اضمحلال في القرن التاسع الهجري- الخامس عشر هجري، بسبب تحويل الطريق التجاري إلى رأس الرجاء الصالح، وما قام به البرتغاليون من السيطرة على الطريق التجاري الشرقي في المحيط الهندي، وجنوب البحر الأحمر، لذلك عندما اهتم سلطان مصر الأشرف "قانصوه الغوري" (906-922هـ) ببناء أسطول كبير في السويس ليعقب به الفرنجة في البحر الأحمر والمحيط الهندي، ويحمي التجارة المصرية نجده في سنة 911هـ ربيع الآخر يستعرض عسكره ويعين فيها ثلاث تجاريد، أنفذ كلا منها في جهة معينة، منها التجريدة البحرية وجهها إلى بلاد الهند، اشتركت فيها قوة مغربية، وأوكل السلطان قيادتها إلى الأمين حسين الكردي، ووكّل قيادة المغاربة وحدهم إلى الخواجا نور الدين علي المسلّاتي المغربي[61].

وقصارى القول نستطيع أن نقول بأن جهود المغاربة قد استمرت مع السلاطين المماليك حتى إلى وقت اكتشاف الطريق التجاري رأس الرجاء الصالح.

نخلص في نهاية هذا المقال إلى مجموعة من النتائج نوردها كالآتي:

- التكامل المشرقي المغربي الذي حدث بعد عملية الفتح مباشرة ساهم في انتقال عدد كبير من المغاربة إلى بلاد المشرق خاصة زمن الفاطميين، مشكّلين بذلك جالية دائمة في المنطقة، كان لها دور بارز في الجهاد ضد الصليبيين فيما بعد.

- تميزت أغلب المصادر التاريخية في وصفها للمشاركة العسكرية المغربية ضد الصّليبيين بالمشرق بالتركيز على المحاسن، ممّا جعل الصورة التي رسمها المؤرّخون والرحّالة تبدو واضحة وجلية.

- المغاربة الذين شاركوا إخوانهم المشارقة في جهاد الصليبيين نجدهم في بعض الأحيان ربما كانوا أكثر اندفاعا وحرصا من أهل البلاد الأصليين، فلم تقعدهم الشيخوخة، ولا التقدم في السن، ولم يرهبهم الموت، أو فقدان الأموال، مسطّرين بذلك أنصع الصفحات وأنقاها، ممّا يدل على صدق انتمائهم العربي الإسلامي.

- نال المغاربة من السلاطين الزنكيين والأيوبيين ومن بعدهم المماليك كل الحفاوة والتكريم، لما يقومون به من تضحيات كبيرة وسخية في مختلف الحقول والميادين، إلى جانب جهادهم ضد الصليبيين على مدى سنين طويلة.

الهوامش:

(1)- في سنة (486هـ/1093م) قدم إلى بيت المقدس راهب فرنسي يدعى "بطرس الناسك" للحج والزيارة، ولعله اغتاظ لرؤية السيادة الإسلامية على فلسطين والأماكن النصرانية المقدسة، فعزم على دعوة المسيحيين لإنقاذ الأماكن النصرانية المقدسة من أيدي المسلمين، فكرّ راجعا إلى وطنه فرنسا وعرّج على روما حيث يوجد البابا أوربان الثاني فأخبره بذلك، فقام هذا الأخير بعقد المجامع الكنسية للبحث عن كيفية تنفيذ خطة غزو البلاد الشامية وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين، وعُقد المجمع الكنسي في بليزانس بإيطاليا (1095م) إلا أنه لم ينجح فعُقد مرة ثانية في كليرمون في نوفمبر 1095م، واتُفق أن يكون موعد الانطلاق يوم 15 أوت 1096م، وكانت هذه الحملة شعبية بقيادة بطرس الناسك، ثم تلتها حملة رسمية في جانفي 1099م، توجّه خلالها الصليبيون نحو بيت المقدس، وتعتبر هذه الحملة هي الأولى ثم تلتها حملات أخرى، أنظر: عيسى، الحسن: تاريخ العرب – من بداية الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة العثمانية – ط1،/ عمان – الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع، 2008م، ص. ص 93، 94، 98.

(2)- زكي محمد، حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، د ط، بيروت– لبنان: دار الرائد العربي، 1401هـ/1981م، ص 85.

(3) - عبد الرحمان، زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي – من الفتح العربي إلى معركة المنصورة، د ط، القاهرة: مكتبة الأنجاد المصرية، د ت، ص 30.

(4) - ناصر، خسرو: سفرنامة، ترجمة: يحي الخشاب، ط2، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1943م، ص 109.

(5)- المقريزي: اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج1، ص 221.

(6) - عمر عبد السلام، التدمري: "المغاربة في ساحل الشام – تاريخهم السياسي والحضاري في العصر الفاطمي"، مجلة التاريخ العربي، ع 1991/2م، ص. ص 237، 238.

(7) - نفسه، ص 238.

(8) - نفسه، ص 240.

(9) - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، ط1، بيروت- لبنان: دار الكتب العلمية، 1407هـ/1987م، ج3، ص 97؛ "روى أن سبب مجيء هذا الملثم إلى بغداد أن المغاربة كانوا يعتقدون في العلويين أصحاب مصر الاعتقاد القبيح، فكانوا إذا أرادوا الحج يعدلون عن مصر، وكان أمير الجيوش بدر الجمالي والد الأفضل أراد مصالحتهم فلم يميلوا إليه، ولا قاربوه ... فلما ولى ابنه الأفضل أحسن إليهم، واستعان بمن قاربه منهم على حرب الفرنج، وكان هذا الملثم من جملة من قاتل معه، فلما خالط المصريين خاف العودة إلى بلاده، فقدم بغداد ثم عاد إلى دمشق، ولم يكن للمصريين حرب مع الفرنج إلا وشهدها، فقتل في بعضها شهيدا، وكان شجاعا، فتاكا،مقداما". أنظر: نفسه، ص97.

(10) - أحمد مختار، العبادي: "دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي"، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، الإسكندرية: د. ع/ 2000م، ص 84.

(11) - قاسم عبده، قاسم: ماهية الحروب الصليبية، د. ط، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998م، ص. ص 154، 155.

(12) - أحمد مختار، العبادي: " دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي"، ص 85.

(13)- هو يوسف ابن دوباس الفندلاوي المغربي، أبو الحجاج الفقيه المالكي، قدم الشام حاجا فسكن بانياس مدة، وكان خطيبا بها ثم انتقل إلى دمشق فاستوطنها، ودرس بها على مذهب مالك –رضي الله عنه- وحدث بالموطأ وفي سنة 543هـ كان قد خرج فيمن خرج من المسلمين لقتال الفرنج، فلقيه الأمير المتولي وقد لحقه مشقة من المشي، فقال له: أيها الشيخ الإمام ارجع فأنت معذور للشيخوخة، فقال: لا ارجع، نحن بعنا واشترى منا يريد قوله تعالى: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ -التوبة 111-، أنظر: الحموي، ياقوت ابن عبد الله: معجم البلدان، د ط، بيروت – لبنان: دار صادر، د ت، ج4، ص. ص 277، 278؛ ابن القلانسي، أبو يعلى: تاريخ أبي يعلى، دون ذكر الدار ولا تاريخ النشر، ص 219؛ المقديسي: الروضتين في أخبار الدولتين – النورية والصلاحية- د ط، القاهرة: مطبعة وادي النيل، 1287هـ، ج1، ص 52؛ الشهابي، قتيبة: صمود دمشق أمام الحملات الصليبية – مستخرجة من نصوص المؤرخين العرب والأجانب، د ط، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 1998م، ص 164؛ عاشور، فايد حماد محمد: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية – العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي، ط3، بيروت – لبنان: مؤسسة الرسالة، 1405هـ/1985م، ص 215.

(14) - الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد ابن بسيوني زغلول، د ط، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، د ت، ج2، ص. ص 463، 466.

(15) - ابن جبير: ، رحلة ابن جبير، ط2، بيروت – لبنان: دار صادر، د ت274.

(16) - ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، د ط، بيروت – لبنان: منشورات دار الحياة، د ت، ص 628؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط1، بيروت – لبنان: دار إحياء التراث العربي، 1424هـ/2000م، ج4، ص 20.

(17) - ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص. ص 628، 629.

(18) - ابن جبير: المصدر السابق، ص 280.

(19) - ابن منقذ، أسامة: كتاب الاعتبار، د ط، القاهرة: مكتب الثقافة الدينية، د ت، ص 82.

(20) - ابن جبير: المصدر السابق، ص. ص 250، 251.

(21) - نفسه، ص 287.

(22) - السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ط1، بيروت – لبنان: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، 1418هـ/1997م، ج2، ص 41.

(23) - علي، أحمد: الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام – من نهاية القرن الخامس لهجرة وحتى القرن التاسع لهجرة، ط1، دمشق – سوريا: دار طلاس، 1988م، ص 306.

(24) - نفسه، ص 304.

(25) - أحمد مختار، العبادي: " دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي"، ص 86، ويشير الأصفهاني أن هذا الأمير المغربي أخبر بأن صلاح الدين لما مرض مرضه الشديد سنة 582هـ نذر إذا شفي من مرضه بألا يقاتل من المسلمين أحدا، وأن يكرس جهاده ضد الصليبيين، وأنه إذا انتصر وظفر بالبرنس أرناط صاحب الكرك تقرب إلى الله بإراقة دمه، فلما شفي وتحقق له النصر على أرناط وأسره في حطين بر بنذره، فكان هذا هو السبب في إراقة دم أرناط، أنظر: نفسه، ص 86؛ هذه الرواية تفند الرواية الأخرى المشهورة والتي تقول أن سبب مقتل أرناط هو استيلائه على قافلة مصرية كبيرة كانت سائرة إلى دمشق، فأقسم صلاح الدين الأيوبي بأن ينتقم منه وبأن يقتله بيده.

(26) - علي، أحمد: المرجع السابق، ص 304؛ فيما يخص تجهيز الحمامات نجد أنه عند منازلة صلاح الدين على عكا سنة 583هـ، كان في العسكر أكثر من ألف حمام، وكان أكثر من يتولاها المغاربة، يجتمع منهم إثنان أو ثلاثة، ويحفرون ذراعين فيطلع الماء، ويأخذون الطين فيعملون منه حوضا وحائطا، ويسيرونه بحطب وحصير، يقطعون حطبا من البساتين التي حولهم ويحمون الماء في قدور، فيصير حماما يغسل الرجل رأسه بدرهم وأكثر، فإذا كان في المعسكر ألف حمام وعلى كل حمام إثنان أو ثلاثة من المغاربة، كان عدد هؤلاء المغاربة وحدهم ألفين أو ثلاثة آلاف، هذا عدا آلاف غيرهم الذين كانوا يعملون في أمور شتى قصدوا الشام من أجلها، أنظر: صلاح الدين، المنجد: المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، ط1، بيروت: دار الكتاب الجديد، 1963م، ص 23.

(27) - حسن خضيري، أحمد: علاقات الفاطميين بمصر في دول المغرب (362-567هـ/973-1171م)، ط1، القاهرة: مكتبة مدبولي، د. ت، ص 90.

(28) - نفسه، ص 90.

(29) - أحمد مختار، العبادي والسيد عبد العزيز، سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، د ط، بيروت – لبنان: دار النهضة العربية، 1981م، ص. ص 261، 262.

(30) - أحمد مختار، العبادي: " دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي"، ص89 .

(31) - السلاوي، أبو العباس أحمد ابن خالد الناصري: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى– الدولتان المرابطين والموحدين، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، د ط، دار البيضاء - المغرب: دار الكتاب، 1954م، ج2، ص. ص 162، 163؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر

ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، د ط، بيروت – لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1421هـ/2000م، ج6، ص 330.

(32) - هو الأمير يعقوب يوسف –رضي الله عنه- كان كاملا، فاضلا، عدلا ورعا جزلا، مستظهرا للقرآن لكريم –كتاب الله تعالى- بشرحه في ناسخه ومنسوخه، قارئا لنصه، حافظا له على وقفه وابتدائه، عالما بحديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بصحيحه ومختلفة، لما تمت له البيعة أطاعته الرعية، ويقال أنه أخرج مئة ألف دينار ذهبا من بيت المال فقرها في الضعفاء من ببوتات بلاد المغرب، كتب إلى جميع بلاده في تسريح السجون، ورد المظالم التي فعلها العمال أيام أبيه، أكرم الفقهاء وراعا الصلحاء والفضلاء، كان ذا رأي وعزم ودين وسياسة كانت أيامه زينة للدهر وشرفا لأهل الإسلام، ولم يزالوا فيها عزة ظاهرين على العدو قاهرين له، انظر: بن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة، تحقيق: عبد الهادي التازي، ط1، بيروت، دار الأندلس، 1383هـ/1964م، ص 231؛ بن أبي زرع في كتابه: الأنيس المطرب،د،ط، الرباط، صور للطباعة والوراقة، 1972م، ص.ص 217، 218.

(33) - السلاوي: المصدر السابق، ج2، ص 163؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 331.

(34) - عبد الهادي، التازي: أوقاف المغاربة في القدس الشريف – وثيقة تاريخية سياسية قانونية، د ط، المحمدية المغرب: مطبعة فضالة، 1981م، ص 76.

(35) - حسن إبراهيم، حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط14، بيروت – القاهرة: دار الجيل – مكتبة النهضة المصرية، 1416هـ/1996م، ج4، ص 216.

(36) - السلاوي: المصدر السابق، ج2، ص 163.

(37) - عبد الهادي، التازي: المرجع السابق، ص 9.

(38) - ابتسام مرعى، خلف الله: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي (524-936هـ/1130-1529م)، د ط، الإسكندرية: دار المعارف، 1405هـ/1985م، ص 159.

(39) - عز الدين عمرو أحمد، موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ط1، د م: دار الشروق، 1403هـ/1983م، ص.ص 32، 37، 39.

(40) - علي محمد، الصلابي: دولة الموحدين، ط1، المنصورة - مصر: مكتبة الإيمان، 1424هـ/2004م، ص 187.

(41) - أحمد مختار، العبادي والسيد عبد العزيز، سالم: المرجع السابق، ص 276.

(42) - أحمد مختار، العبادي: " دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي"، ص .89

(43) - كانت قبرص منذ أن سقطت عكا سنة 1291م، قد أصبحت معقلا هاما للصليبيين في الشرق وفتحت أبوابها لكل منهزم من الصليبيين، أنظر: الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي، إعداد: فريق البحوث والدراسات الإسلامية، ط 7، القاهرة: مؤسسة اقرأ، 2007م، ج1، ص 494.

(44) -العسقلاني، بن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة،د ط، بيروت–لبنان:دار الجيل،1414ه/1993م،ج3،ص 350

(45) - أحمد مختار، العبادي والسيد عبد العزيز، سالم: المرجع السابق، ص 304.

(46) - نفسه، ص 304.

(47) - نفسه، ص 91.

(48) - من القرائن على ذلك ما ذكره ابن حجر العسقلاني إذ يورد أن محمد ابن محمد الدمشقي المالكي الذي تولى قضاء دمشق إحدى عشر مرة في مدة خمس وعشرين سنة، قد كان أبوه جنديا ثم ألبس ولده كذلك واشتغل كثيرا في الوقعة الكبرى بمالك وأسرت له ابنته، وسكن عقب الفتنة بقرية من قرى سمعان إلى أن انزاح عن البلاد، فرجع إلى حلب على ولايته ثم توجه من حلب إلى دمشق، فقطنها وولى قضاءها، ومات بها في المحرم ولم يكمل الستين وهو قاضي دمشق، أنظر: العسقلاني، ابن حجر، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق وتعليق: حسن حبشي، د ط، القاهرة: المجلس الأعلى لشؤون الإسلامية بالاشتراك مع لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1391ه/1971م، ج2، ص 252.

(49) - ابتسام مرعى خلف الله: المرجع السابق، ص. ص 224، 225.

(50) - السيد عبد العزيز، سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، د. ط، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، 1982م، ص 495.

(51) - ابتسام مرعى، خلف الله: المرجع السابق، ص 225.

(52) - نفسه، ص. ص 225، 226. (نقلا عن النويري)

(53) - نفسه، ص 227.

(54) - أحمد مختار، العبادي والسيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 316.

(55) - أحمد مختار، العبادي والسيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص. ص 317، 318.

(56) - نفسه، ص 318.

(57) - أحمد مختار، العبادي: " دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي"، المرجع السابق، ص 95.

(58) - أحمد مختار، العبادي والسيد عبد العزيز، سالم: المرجع السابق، ص. ص 324، 325.

(59) - علي، أحمد: المرجع السابق، ص 307.

(60) - ابتسام مرعى، خلف الله: المرجع السابق، ص 227.

(61) - نفسه، ص 227.